

الروم غنائم وأسرى وسبايا؛ وما تنفكُ قُوَّاتُ الفدائيين من العرب المتطوِّعة تُغيِّر على أطراف بلاد الروم تُشعَّت فيها، وتدكُّ حصونها، وتنشر بين أهلها الرعب والفرع ... وقد عجزت جيوش الروم عن صد هذه الغارات العربية المتتابعة على البر والبحر، وأخذوا بالعرب عن تدبير أسباب الدفاع عن بلادهم، فساءوا رأيًا في القياصرة والبطارقة والأمراء وقادة الجُند، ووقعوا في اضطراب وفوضى وكَجاج عنيف؛ فلا يكاد يستقرُّ على العرش قيصر من القياصرة حتى يُبادروا إليه فيخلعوه فيقتلوه أو يَسْمُلُو عينيهِ ويجدعوا أنفه،^٢ وينفوه إلى جزائر البحر أو سهول القريم ...

وخلا عرشُ القسطنطينية من قيصر، وسنحت الفرصة ليعرب العرب ضربتهم الحاسمة، وقال أنسطاثيوس الصالح كاتم سرِّ القيصر المخلوع: قد — والله — أوشك العرب أن ينالوا منالهم ويملكوا البر والبحر والسهل والجبل، وقد غلب أسطولهم على البحرين ونفذ إلى الخليج، ووطئت جنودهم ساحل «أبيدوس»^٣ وكأني بهم قد وثبوا غدًا إلى «بيزانت»^٤ و«كيلس»^٥ فنقبوا الأسوار أو تسلَّقوها كالجن فإذا هم بين ظهرانينا لا يردُّهم أحد، وكأني بمسلمة على رأس جيشه قد وطئ بلاط قسطنطين، وحطم تاجه ودنَّس «أيا صوفيا»^٦ بنعله وكبَّ تمثال العذراء على وجهه!

قال قسطنطين بطريق أبيدوس: بعض هذا أيها الأمير؛ فوالله لا ينالون منَّا منالًا وفيينا عرق ينبض؛ فإلَّا يكن دفاعنا عن أرضنا وديارنا وحُرِّياتنا، فليكن دفاعنا عن الصليب وتمثال العذراء.

قال ميناس القائد ساخرًا: فهلَّا دافع قسطنطين عن عرضه؛ إذ سُبيَّت بنتاه وسيقتا تحت عينيهِ إلى الأسر فلم يستطع ردُّهما، ولم يزل يبكي فقدما بكاء يعقوب،^٧ لا يكاد يخفُّ لأخذ الثأر؟

^٢ يفتقوا عينيهِ ويقطعوا أنفه.

^٣ من ثغور الروم، بالقرب من القسطنطينية.

^٤ من ثغور الروم، بالقرب من القسطنطينية.

^٥ من ثغور الروم بالقرب من القسطنطينية.

^٦ كنيسة مقدَّسة من كنائس الروم.

^٧ يعقوب: أبو يوسف الصديق؛ وكان بكاؤه لفقد ولده مضرِب المثل.